العرب والبلاد العربية في منظور سليمان شفيق كمالي باشا

أ. د. فاضل مهدي بيات
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا) – إستانبول

"إن غرضي الوحيد هو سعادة البلاد وسلامتها واتحاد المسلمين وصلاحهم، وللوصول إلى هذه الأمنية أضحي الدنيا وما فيها وأضحي حياتي أيضًا عند اللزوم"(١).

صاحب هذا القول هو سليمان شفيق سويله مز أوغلي الذي تعرّف القرّاء العرب عليه لأول مرة في سنة ١٩٢٤م (١٣٤٣هـ)، وذلك عندما اطّلعوا على (٣٦) حلقة من مذكراته المنشورة على شكل حلقات في جريدة الأهرام القاهرية(٢)، وكان لها صداها الواسع. وبعد (٤٧) سنة – أي في سنة

---

(١) ورد هذا الكلام في رسالة لسليمان شفيق باشا إلى الشيخ محمد بن عبدالله قاضي بني مالك. انظر: بلاد العرب في مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا، مجلة العرب، ج١، سنة ٦، ص١٦.

(٢) نشرت جريدة الأهرام القاهرية هذه المذكرات تحت عنوان: "مذكراتي عن بلاد العرب"، بدءًا من ٩ ربيع الآخر ١٣٤٣هـ (٦ نوفمبر ١٩٢٤م) حتى ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٤٣هـ (٢٣ يناير ١٩٢٥م) وذلك في (٣٦) حلقة. يوسف حسن محمد العارف: أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف عسير، نادي أبها الأدبي، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٥-٢٦.

١٩٧١م (١٣٩١هـ) - أعادت مجلة العرب الصادرة في الرياض نشر هذه المذكرات(٣) بعد أن حظيت باهتمام صاحبها المؤرخ المشهور الراحل حمد الجاسر. ثم جمعها محمد بن أحمد العقيلي في كتاب نشره تحت اسم "مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير"(٤).

ويبدو أن المعنيين بهذه المذكرات في جريدة الأهرام ومجلة العرب لم يعرفوا أن لصاحبها كتابًا يتعلق بالبلاد العربية، أو بالأحرى ببلاد الشام والحجاز وهو "رحلة إلى الحجاز"، إلى أن كشف عنها الباحث والأكاديمي التركي المعروف خليل ساحللي(٥) أوغلي في ورقته التي قدمها في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية التي نظمها قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب بجامعة الرياض في سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م. وإثر تعريف ساحللي أوغلي بهذه الرحلة أجرى أحد الباحثين العرب - وهو عبدالفتاح أبو علية -

---

(٣) نشرت مجلة العرب هذه المذكرات في (٢٤) حلقة، بدءًا من شهر ربيع الأول ١٣٩١هـ/ مايو ١٩٧١م حتى شهر ربيع الآخر ١٣٩٣هـ/ مايو ١٩٧٣م، تحت عنوان "بلاد العرب في مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا". ويبدو أن المجلة رأت أن الحلقات المنشورة في الأهرام قصيرة فأعادت ترتيب بعضها من جديد فنشرتها في (٢٤) حلقة.

(٤) محمد بن أحمد العقيلي: مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير، نشر نادي أبها الأدبي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

(٥) ساحللي: بلامين وليس بلام واحدة، لأن "لي" الملحقة بـ"ساحل" هي لاحقة النسبة في التركية وتقابل ياء النسبة العربية، وفي حالة تعريب اللقب ينبغي تعريفه أي كتابته بشكل "الساحلي"، ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث خليل ساحللي أوغلي يكتب اسمه بالتركية بشكل "Halil Sahillioglu"؛ لذا اقتضى التنويه.

دراسة حول المبحثين الملحقين بنهاية الرحلة ويتعلقان بالدولة السعودية الأولى وإمارة آل رشيد(٦). وعلى الرغم من أن الفضل الأكبر في هذه الدراسة يعود إلى الباحث والأكاديمي التركي سليمان آتش الذي ترجم المبحثين من العثمانية، إلا أن أبو علية لم يذكر اسمه إلا في المقدمة حيث قدم له الشكر لقيامه بترجمة المبحثين. ومما تجدر الإشارة إليه أن الاهتمام ازداد بسليمان شفيق باشا حتى نجد أن نادي أبها الأدبي يتولى نشر كتاب ثان عنه بعد كتاب العقيلي وهو: "أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف عسير"، لمؤلفه يوسف حسن محمد العارف الذي أعاد فيه صياغة المذكرات من أسلوب المتحدث إلى أسلوب الغائب، مفصلاً في التعريف ببعض المواقع وسرد الأحداث(٧). وأثارت الرحلة فيما بعد انتباهي بعد أن اكتشفتها عن طريق الصدفة، فتوليت ترجمة القسم المتعلق ببلاد الشام، مع إجراء دراسة وافية عن المؤلف ورحلته ومذكراته(٨).

وعلى الرغم من الأهمية التي حظي بها سليمان شفيق وتوليه مهام ومسؤوليات مهمة في الدولة العثمانية وإنجازه عدة مؤلفات مميزة، إلا أنه لم تسلط عليه الأضواء من قبل الدارسين إلى أن تولت ابنته بريزات برين نشر مذكراته عن

---

(٦) عبدالفتاح حسن أبو علية: دراسة حول المخطوط التركي "حجاز سياحتنامه سي"، الرياض، ١٤٠٣هـ.

(٧) سبق ذكر اسم الكتاب في الهامش رقم (١).

(٨) انظر: فاضل مهدي بيات، رحلة سويله مز أوغلي إلى بلاد الشام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م، منشورات جامعة آل البيت الأردنية، ٢٠٠٠م.

الانقلاب العثماني(٩). ثم أجرت إحدى طالبات الدراسات العليا دراسة ماجستير عنه(١٠).

سليمان شفيق سويله مز أوغلي (الهوية الشخصية):

ينحدر سليمان شفيق باشا من عائلة سويله مز أوغلي المشهورة في مدينة أرضروم التركية، ولد في سنة ١٨٦٤م (١٢٨١هـ)، وفي مقتبل عمره تقلد والده ولاية طرابلس الغرب فرافقه إلى هناك، وأكمل تحصيله الدراسي في الكلية الحربية بإستانبول وتخرج ضابطًا، وفي سنة ١٨٩٠م (١٣٠٧هـ) تولى والده أمانة الصرة فرافقه من إستانبول إلى الحرمين الشريفين، وفي سنوات ١٨٩٣-١٨٩٥م (١٣١١-١٣١٣هـ) خدم في القوات العثمانية المرابطة في اليمن. وبعد الانقلاب العثماني تولى لواء عسير وقيادة الجيش فيه من عام ١٩٠٨-١٩١٢م (١٣٢٦-١٣٣٠هـ) وشهد ثورة الإدريسي

---

(٩) نشرت هذه المذكرات بالحروف التركية الحديثة:

Suleyman Sefik Pasa, Hatiratim, Basima Gelenler ve Gorduklerim, 31 Mart vak'asi, aktaran, Humeyra Zerdeci, Istanbul, 2004.

(10) Serife Ozkan, Yuzellilikler and Suleyman Sefik Kemali: A legitimacy and Security Isssue, University of Bogazici, Institute of Ataturk, Master Thesis , 2005.

هذا الكتاب عبارة عن رسالة ماجستير تحت عنوان: "سليمان شفيق باشا والمئة والخمسينيون" تقدمت بها شفيقة أوزكان إلى جامعة بوغاز إيجي (البسفور) في إستانبول، والمئة والخمسينيون هم أبرز شخصيات العهد الأخير من الدولة العثمانية الذين صدر الحكم بإعدامهم بعد تولي مصطفى كمال الحكم، وكان سليمان شفيق باشا واحدًا منهم.

التي تفجرت في هذه المدة في عسير، ثم نُقل إلى سوريا. وفي سنة ١٩١٣م (١٣٣١هـ) تولى ولاية البصرة وقيادة الفيلق العثماني المرابط فيها. بعد الحرب العالمية الأولى أسندت إليه وزارة الحربية (١٩١٩م/١٣٣٧هـ). وأصبح في مواجهة عسكرية مع الثورة الكمالية في الأناضول. وبعد تولي مصطفى كمال الحكم في تركيا أدرج اسم سليمان شفيق باشا في قائمة "المئة والخمسين" من أتباع النظام السابق (العثماني) الذين اتهموا بخيانة الدولة، وصدر بحقهم حكم الإعدام، فاضطر إلى الهروب إلى خارج تركيا واستقر به المقام في مصر. ولم يرجع إلى تركيا إلا بعد شموله بالعفو العام الصادر بحق رجالات الدولة العثمانية وذلك في سنة ١٩٤١م (١٣٦٠هـ)، وأمضى بقية عمره في إستانبول حيث توفي في ١٣ فبراير سنة ١٩٤٦م (١٢ ربيع الأول ١٣٦٥هـ)(١١).

بداية صلته بالعرب:

لم تكن صلة سليمان شفيق بالعرب صلة عادية، بل وديةً بدأت في مقتبل عمره، وقد أفصح عن ذلك بنفسه قائلاً: "كانت لي صلة ود قلبي مع الأمة العربية من حداثة سني؛ لأن والدي المرحوم علي كمالي باشا كان واليًا على طرابلس الغرب وبنغازي أيام فتوتي، وكنت ضابطًا في مقتبل العمر. فصحبته

---

(١١) للتفصيل عن حياته ينظر: رحلة سويله مز اوغلي إلى بلاد الشام، ص١٣-٢١ (أوردتُ في هذا الكتاب المصادر التي اعتمدت عليها في سرد حياة سليمان شفيق وكلها بالتركية، ولا أرى داعيًا لتكرار أسمائها هنا)؛ وفاضل مهدي بيات، سليمان شفيق باشا في البلاد العربية، مجلة العرب، ج٣-٤، السنة ٤٢، ص١٦٩-١٧٣؛ يوسف العارف، أضواء على مذكرات سليمان شفيق، ص٢٨-٣٤.

من دمشق إلى مكة المكرمة من طريق البر، وخدمت ضابطًا في اليمن برتبة قائد ألف (بيكباشي) بين سنتي ١٨٩٣ و١٨٩٥ (١٣١١ و١٣١٣هـ). فهذه الأواصر ربطتني بالأمة العربية وجعلتني أفهم لغتها. وكان السبب في اختياري لهذا المنصب في عسير (متصرفًا وقائدًا للجنود فيه) وقوفي كثيرًا أو قليلاً على أحوال البلاد العربية وأهلها ورغبتي الشخصية في العمل ببلاد العرب"(١٢).

والحقيقة أن البداية الحقيقية لصلته بالبلاد العربية تعود إلى سنة ١٨٩٠م (١٣٠٧هـ) حيث رافق والده من إستانبول إلى الحرمين وكتب مشاهداته عن هذه الرحلة ولا سيما من بيروت إلى دمشق ومنها إلى الحرمين، في كتاب ضخم سماه "حجاز سياحتنامه سي" أي رحلة إلى الحجاز(١٣)، ذكر عنها أنها رغم شمولها على معلومات ليست بقليلة عن ماضي جزيرة العرب وحاضرها وما يتعلق بأوضاع العشائر فيها والتدابير التي يجب اتخاذها من قبل الدولة وعلى وجه الخصوص في طريق الحج وبلاد الحجاز، إلا أنها (أي الرحلة) عبارة عن "لائحة مهمة خاصة" أكثر من كونها رحلة، وليست الغاية منها طبعها ونشرها، بل عرضها على السلطان ليحيط علمًا بمضمونها(١٤).

---

(١٢) مجلة العرب، الرياض، ج١١، سنة ٥، ص٩٩٩-١٠٠٠.

(١٣) هذه الرحلة محفوظة في مكتبة جامعة إستانبول تحت رقم: (TY. 4199) وسنشير إليها لاحقًا باسمها العثماني أي "حجاز سياحتنامه سي".

(١٤) حجاز سياحتنامه سي، ص١.

عرف عنه بأنه كان يسجل مشاهداته وانطباعاته عن الأحداث التي شهدها أو الأماكن التي زارها بدقة وموضوعية(١٥). وقد اعترف بذلك في أكثر من مرة في كتاباته، ففي المذكرات التي نشرها نراه يقول: "والمعلومات التي سأقدمها للقارئ، وإن لم تكن غاية في الكمال، غير أنها على كل حال تستند إلى المشاهدات لا إلى المسموعات، لذلك أنا مقتنع بأنها عارية عن الخطأ بقدر الإمكان، وستكون مفيدة"(١٦)، ولكنه لا يكتفي بتدوين ما يراه، بل نراه يفصل في الحدث فيذكره بكل تفاصيله، يذكر أسبابه ونتائجه وأحياناً العبر منه، وليس أدل على ذلك من قوله: "والآن سأعرض على القارئ زبدة آرائي التي أعتمد فيها على تجاربي ومشاهداتي. وسأبحث فيها - بقدر الإمكان - عن شؤون الإمام يحيى والسيد الإدريسي وأمير مكة وسلطان نجد مبيناً أسباب الحوادث في تلك الربوع - وهي الأسباب التي ظلت حتى الآن وراء ستار الخفاء - ورجائي أن يكون عملي هذا

---

(١٥) استخدم سليمان شفيق عند توثيقه الأحداث التاريخ الرومي، أي التاريخ الرسمي للدولة العثمانية في ذلك الوقت، وليس كما ذكر محمد بن أحمد العقيلي بـ"أن صاحب المذكرات يؤرخ بالتاريخ الهجري التركي أو بالأصح العثماني" (انظر هامش ٢، ص٤٣ من كتابه)، فليس هناك تاريخ هجري تركي أو عثماني، وكان على الباحث أن يلاحظ أن التاريخ الوارد في المذكرات (ص٤٣) يتضمن شهر تشرين الأول، وهو يقابل أكتوبر، وهو من الأشهر الميلادية. والمعروف أن العثمانيين استخدموا أسماء الأشهر الميلادية السريانية في تاريخهم الرومي (وهي أسماء الأشهر نفسها المستخدمة اليوم في العراق وبلاد الشام)، وتقيّدوا بأسماء الأشهر العربية ولم يغيروا منها أي شيء، واستخدموها في أغلب الأحيان إلى جانب التاريخ الرومي.

(١٦) مجلة العرب، ج٩، سنة ٥، ص٨٥٩.

خدمة للتاريخ، ولدي الثقة بأن القراء يرون ذلك صادرًا عني بحسن نية، وسيرون أن المعلومات التي أعرضها عليهم مؤيدة كلها بالمستندات الرسمية والوقائع الثابتة"(١٧).

ويبدو أنه كان يروم نشر كل مذكراته – عن البلاد العربية – التي بدأها بثورة الإدريسي في عسير، ولهذا أخذ المستمسكات المتعلقة بها معه عندما غادر إلى الخارج، ويفصح بذلك قائلاً: "وإن عندي الآن معظم المستندات المتعلقة بمدة وجودي في بلاد العرب، غير أني لا أجد متسعًا من الوقت لجمع هذه المستندات وتصنيفها لتكون في شكل مذكرات منظمة. غير أن الحوادث الأخيرة العظيمة الأهمية التي وقعت في بلاد العرب والترغيب الذي لقيته من بعض الأصدقاء ومن القراء جعلني أستمر في نشر قطع من مذكراتي اعتمادًا على رؤوس أقلام مدونة عندي أكملها من ذاكرتي"(١٨).

من خلال ما تركه لنا سليمان شفيق باشا من كتابات يمكننا القول إنه صاحب أسلوب سلس بعيد عن الإطناب والتكلف في الكتابة، ويميل إلى الأسلوب الأدبي، واعترافه بغير ذلك لا يمكن تفسيره إلا من باب التواضع فيقول: "وإني أعترف بعدم مقدرتي في صناعة الإنشاء والتحرير؛ لأن صناعتي هي الجندية، وأقول هذا طالبًا العفو من القراء عما يرونه من عدم الارتباط بين أجزاء مقالاتي... وإني ألتزم

---

(١٧) مجلة العرب، ج٩، سنة ٥، ص٨٥٩.

(١٨) مجلة العرب، ج٦، سنة ٦، ص٤١٣.

الاختصار في كل ما أكتبه في هذه المقالات اجتنابًا لملل القارئ، فإذا جاء الاختصار مخلاً بالمعنى في بعض الأوقات فأرجو ممن يلاحظ ذلك أن ينبهني إليه لأتوسع في البيان"(١٩).

وما يهمنا مما خلفه سليمان شفيق باشا من مذكرات أو مؤلفات هو الآراء والأفكار التي أبداها بشأن المسائل التي توقف عندها. وهي كثيرة ومتنوعة لكثرة المسائل التي تناولها، ورغم كثرتها نراه ينطلق انطلاقة مبدأ ويحافظ على موضوعيته ولا يتردد من توجيه الانتقاد لهذا الطرف أو ذاك عندما يراه يتصرف تصرفًا غير لائق، فلم يخلص من انتقاداته أركان الدولة العثمانية والزعماء العرب على حد سواء. وسأحاول في هذا البحث التوقف عند بعض هذه الأفكار والمواقف التي أبداها تجاه بعض المسائل التي تخص العرب والبلاد العربية.

حبه وإعجابه بالعرب والتقاليد العربية:

لم يُخفِ سليمان شفيق باشا إعجابه بالعرب والعادات العربية، فأعرب عن ذلك كلما وجد سبيلاً إليه، فعندما زار بيروت مع قافلة الحج في سنة ١٨٩٠م (١٣٠٧هـ) تعرف على أهاليها عن قرب فذكر عنهم بأنهم "مجدون في عملهم ويميلون ميلاً خاصًا إلى العلم والمعرفة والصناعة والتجارة، ويتميزون بالوقار في أوضاعهم وأطوارهم، يمارس المقيمون منهم على الجبال رعي الحيوانات، والذين في السهول

---

(١٩) مجلة العرب، ج٦، سنة ٦، ص٤١٣.

مزارعون ماهرون، أما المقيمون في المدن فهم تجار وأرباب حرف ومعرفة. ومن طبائعهم التسابق في كل شيء، ولهذا فهم يستوعبون بسهولة ويمارسون مهنهم، وبمقتضى فطنتهم الطبيعية، مارسوا الأمور التجارية، ويتعاملون مع أشهر موانئ عالم التجارة، وأصبحوا بحق خير خلف يليقون بالفينيقيين.."(٢٠).

وعندما كان في ضيافة أحد شيوخ منطقة الزرقاء في لواء حوران لفت انتباهه أحد المتقدمين في السن وهو يقدم الخدمة للضيوف ويظل واقفًا، فأشار إليه بالجلوس، إلا أن الشيخ اعترض على ذلك وذكر أنه ابن عمه، وأنه يتجاوز حدوده إذا جلس. ولم يبدِ كاتبنا أي امتعاض لذلك ولم يحنق على الشيخ، بل على العكس من ذلك أيده واعتبر هذا التصرف منه "عادة جميلة، وطاعة عجيبة"؛ لأنه رأى "أن هذه الزعامة الطبيعية لو لم تكن قائمة بين العشائر لكان التعايش في مثل هذه البداوة صعبًا لا يطاق"(٢١).

وتوقف عند بعض الصفات التي يتحلى بها البدو وعلى رأسها الصدق والاحترام وإطاعة الأوامر والمروءة فنراه يقول: "إن من أعظم العار عند القبائل أن يقول الرجل الكذب أو أن ينكر أمرًا وقع. وعلى ذلك كان من النادر جدًا أن يحيد أحد المتقاضيين [في المحكمة] عن الحقيقة في تقرير دعواه. وحكم القاضي محترم جدًا ومطاع من الجميع حتى إنه لا حاجة إلى قوة إجرائية في تنفيذه".

---

(٢٠) حجاز سياحتنامه سي، ص٢٦.

(٢١) حجاز سياحتنامه سي، ص٧٩.

"إن شعبًا هذه أخلاقه الفطرية وهذا مبلغه من الإخلاص والصفاء لا شيء أسهل من إدارته إذا عرفت حكومته مزاجه، وليس أصعب منه مراسًا وأقوى شكيمة لمن يجهل ذلك".

"العدل، وصدق القول، والإخلاص، والثبات في الوعد، والمروءة.. هذه الصفات هي أمضى من الأسلحة في جزيرة العرب"(٢٢).

كان يحز في نفسه أن يرى أبناء البدو وقد استشرى الجهل والتخلف بينهم، ولم يأخذوا نصيبهم من العلم والمعرفة، وتمنى نشر المعارف بينهم ليلحقوا بركب العلم. فعندما كان في طريقه إلى الحج مع القافلة استوقفه أحد شيوخ حوران ليسأله عمن يتولى السلطنة، فأجابه متأسفًا إنه "عبدالحميد"، تأسف لذلك لأن هذا الشيخ ما زال يجهل من هو السلطان. ثم سأله الشيخ عن جدوى أخذ بعض الشيوخ إلى دار السلطنة فأجابه سليمان شفيق: "إن الخليفة يستهدف معرفة أحوال كل رعاياه والتعرف على الزعماء والأعيان بينهم وتكريمهم، وبهذا يريد جمع المسلمين تحت راية واحدة، لأن "الكفار" اتحدوا واتفقوا وتفوقوا في الثروة والمعرفة وتقدموا من الناحية المادية على المسلمين، وآمالهم الخفية ومقاصدهم الشريرة هي محو الدين الإسلامي، ولتحقيق هذه الغاية قاموا بإرسال رجالهم إلى البلاد الإسلامية، سعيًا لإيقاع المسلمين بعضهم ببعض وبث التفرقة والشقاق بينهم، وهم ينجحون أحيانًا، ولهذا فإن الخليفة يهدف إلى

---

(٢٢) مجلة العرب، ج٩، سنة ٦، ص٧٠٣.

إزالة هذا الأمر، وجمع المسلمين في نقطة واحدة وتحت راية واحدة امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [**الحجرات**: ١٠] والتصدي للكفار بهذا الشكل. ولم يكن أمام الشيخ إلا القول: "والله عليك الحق".

ثم يعلق سليمان شفيق باشا على هذا الحدث قائلاً: إن سؤال هذا العربي الذي نشأ في البادية ولم يأخذ نصيبه من كل العلوم والفنون وشعوره ملفت للنظر، ولو تم نشر المعارف في هذه المناطق فإن الأهالي وبسبب ذكائهم الخلقي والطبيعي وشجاعتهم الفطرية، يتمكنون من تحقيق النجاح في المعارف بحيث يوقعون العالم في حيرة واندهاش.

ثم يستدرك قائلاً: "ألم يكن هؤلاء العرب قد تمكنوا خلال مدة قصيرة من السيطرة على أجزاء كبيرة من آسيا وأوربا وأفريقيا وأحرزوا موقعًا رفيعًا في التعليم والحضارة؟"(٢٣).

التعامل مع الواقع الميداني بموضوعية:

عمل سليمان شفيق باشا بين سنتي ١٩٠٨-١٩١٢م (١٣٢٦-١٣٣٠هـ) متصرفًا على لواء عسير، وقبل توجهه إلى عسير جمع المعلومات المتعلقة بالمنطقة التي كانت تشهد في هذه المدة ثورة محلية قام بها الإدريسي، فاطّلع على الملفات الخاصة بعسير والمحفوظة في الباب العالي ووزارتي الحربية والداخلية، إلا أنه وجد أن المعلومات الموجودة فيها لا تشفي الغليل، "بل فيها معلومات تدل على سذاجة وجهل، مثل دعوى أن الإدريسي يطلي وجهه بالفسفور، ويستعمل الاهتزازات

---

(٢٣) حجاز سياحتنامه سي، ص٨٥-٨٦.

الكهربائية مخادعًا الشعب بذلك ومدعيًا الولاية والمهدوية". فقابل الصدر الأعظم حسين حلمي باشا بشأن ما ورد في هذه الملفات وأعرب له عن اعتقاده بأن المعلومات الواردة فيها "من قبيل الأراجيف" وقال له: "إنه لا يجوز أن نبادر إلى حركات نبنيها عن مثل هذه المعلومات، ولا بد من الاطلاع على حقيقة الحال في موضعها، وبعد ذلك أستطيع أن أبدي في الموقف الرأي الصواب"(٢٤).

وعند توجهه إلى اليمن وُضعت تحت تصرفه قوة عسكرية، إلا أنه رفض أن يأخذ معه هذه القوة، لما يولد ذلك من رد فعل من قبل العشائر هناك، وكان يريد أن يصل إلى هناك ويتصل بزعماء البلاد ومشايخها مباشرة، ويعرف حقيقة الفساد ومصادره. إلا أنه طلب استكمال نواقص الفرق العسكرية الموجودة في عسير، فاكتفى بأخذ فوج واحد من جنود الرشاشات. وعندما وصل إلى القنفذة ثغر عسير حقق في أمر زعيم الثورة الإدريسي والأسباب التي دعت الناس إلى اتباعه، ووجد أن كل ما قيل عنه للدولة غير دقيق.. وفي أبها قاعدة البلاد التقى بمشايخ الجبال وسعى إلى استمالتهم، لكن بطريقته الخاصة، وعمل على تغيير نظرتهم السلبية تجاه الدولة دون أن يتعرض بسوء إلى الإدريسي. ومما قاله لهم: "إن الدستور العثماني معناه الرجوع إلى طريقة الشورى المقررة في صدر الإسلام، وقد انقطع منذ اليوم كل ما تقدم من أساليب الظلم والاستبداد، وإن باب الحكومة مفتوح لكل متظلم".

---

(٢٤) مجلة العرب، ج١١، سنة ٥، ص١٠٠٠.

ويبدو أنه كان يؤمن بأن كسب ثقة الأهالي بهذا الأمر في غاية الأهمية، وكان عليه أن يثبت كلامه بفعل ملموس، وبالفعل قام بذلك، فيقول: "وبالفعل منعت الحجاب عن بابي، وفتحته لكل قادم بلا استثناء، اتباعًا لطريقة الحكم العربية".

كما رأى أن من أهم عوامل كسب ثقة الأهالي إشراك زعمائهم في الحكم، ولهذا استصدر أمرًا قبل سفره إلى عسير بتعيين أحد زعماء آل عايض في المنطقة.. غير أنه فوجئ عند وصوله إلى هناك بتعيين عبدالله بن عايض - ابن الأمير محمد بن عايض آخر أمراء عسير السابقين - متصرفًا بالوكالة، ولم يعرف كيفية توليه المنصب، وعندما استفسر عن ذلك قيل له إن أمير مكة حسين باشا فاتَحَ الباب العالي لتعيينه في المنصب وكتب إلى عبدالله بن عايض يطلب منه أن يستلم زمام العمل مؤقتًا إلى أن يرد التصديق من الباب العالي على ذلك نهائيًا، فيعلق سليمان شفيق على ذلك قائلاً: "فدهشت لتدخل حضرة الشريف إلى هذا الحد في شؤون عسير دون أن يكون له حق في ذلك". غير أنه لم ينس الاتصال بعبدالله بن عايض ليخبره بأنه كتب إلى الباب العالي لإقراره بهذه الوظيفة ثم قال له: "ولكن النجابة التي أجدها فيك تجعلني أفتخر بوجودك معي، وأود أن أستفيد من خدمتك، لذلك أنا أوافق على تعيينك معاونًا للمتصرفية بالوكالة إلى أن تصدر الإرادة السنية بأن تكون أصيلاً"(٢٥).

---

(٢٥) مجلة العرب، ج١١، سنة ٥، ص١٠٠٠-١٠٠٢.

غير أن التعامل مع الواقع المستجد كان يحتم عليه تغيير بعض خططه وخاصة العسكرية منها، فبعد وصوله إلى عسير، وقيام الإدريسي بأسر بعض الجنود واستيلائه على بعض المعدات العسكرية بين أبها والقنفذة، فاتَحَ سليمان شفيق الباب العالي مقترحًا تعزيز القوات الموجودة في عسير بفرقة جديدة، لا لأجل استعمالها في حرب، بل لاستعمال سطوتها وهيبتها في نشر العدل وتوزيعه... وبعد ذلك يستطيع - كما يرى هو - أن يتكلم مع الإدريسي بلا قناع، ويسعى لتأليف قلوب الأهالي بكل إخلاص تحت ظلال السيوف.

ورغم حسن النية الذي أبدته الدولة للإدريسي من خلال نخبة من المسؤولين التقوا به في معقله، إلا أن سليمان شفيق توصل إلى أن الإدريسي لا يعرف هذا الأسلوب، وأنه يريد مخادعة المندوبين، لأن من دأبه "أن يلجأ دائمًا إلى طرق الحيلة والتزوير ويخلف المواعيد التي يعد بها، ويحاول الاستفادة من كل وسيلة لتقوية مركزه وزيادة نفوذه"(٢٦).

ولكل ذلك اقتنع سليمان شفيق أن القوة وحدها غير كافية للقضاء على ثورة الإدريسي، فلجأ إلى أساليب مختلفة لردعها، منها العمل على كسب الأهالي واستمالتهم وقطع الصلة بينهم وبين الإدريسي، ولم يتردد حتى من استمالة الإدريسي نفسه، فعندما أسر رجال الإدريسي الحامية العسكرية في بلدة محايل بين أبها والقنفذة، واستولوا على

---

(٢٦) مجلة العرب، ج١٢، سنة ٥، ص١١٠٣-١١٠٦.

المؤن العسكرية فيها، كتب سليمان شفيق رسالة إلى السيد الإدريسي دعاه فيها إلى حقن دماء المسلمين، ثم أبلغ الباب العالي بالوضع وطلب تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية والعمل بعرف البلاد وعاداتها، وذلك لأن الإدريسي يستميل الأهالي بهذا العمل، ووضع نفسه في نهاية رسالته إلى الباب العالي "الضامن لحل مشكلة عسير واستمالة الشعب وتأليف حقوقه"، وهدد بالاستقالة في حالة عدم الموافقة على مطالبه.

وقبل أن يتلقى الجواب من الباب العالي بادر إلى اختيار مفتي عسير الذي هو موضع ثقة الأهالي فولاه القضاء ووضع جنوده كقوة منفذة لقرارات القاضي.

وعلى الرغم من أن الباب العالي وافق على مطالبه ومنحه سلطات واسعة في مهمته، إلا أنه وجد نفسه مقيدًا بين شخصين هما الشريف حسين في الشمال والسيد الإدريسي في الجنوب، ويقول عن الأول إنه "توشح بالراية العثمانية.. معتمدًا على رجال في عاصمة السلطنة ينخدعون بالمظاهر، وأما الثاني.. فإنه ارتدى رداء الزهد والتقوى والتزوير معتمدًا على أصدقائه في الخارج". وكان هو - كما يقول - "بين هذا وذاك في وجل من الألعاب التي سيلعبانها وما سيأتي منهما من ضربات مدهشة" ثم يعلق على ذلك قائلاً: "وأن الزمان والتاريخ قد أظهرا أنني كنت محقًا في جميع مخاوفي"(٢٧).

---

(٢٧) مجلة العرب، ج١١، سنة ٥، ص١١٠٢-١١٠٥.

ومما يتعلق بالإدريسي يرى سليمان شفيق أن الناس انخدعوا به، لأنهم يتبعون الظواهر وهم في غفلة عن مقاصد الإدريسي الخفية التي رسمها للمستقبل، فقاموا يسيرون وراء ناره ويحسبونها نورًا. ثم يسترسل في هذا الصدد قائلاً: "وما برحت الإنسانية البائسة - حتى في البلاد المتمدنة - تنقاد في سبيل سعادتها وهنائها لفئة من مهرة المتشردين فتجعل نفسها آلة في يدهم حتى يبدلونها من السعادة شقاءً ونكبة. ومن المستحيل أن يفهم الناس الحقيقة وهم في هذه الحالة بطريقة الصراحة والإرشاد، بل لا بد من تلقيح الحق في أفهامهم مع الزمن بإخلاص وعزم، وباللسان الذي يلائم أفهامهم. ومن هذا القبيل أمر الإدريسي في عسير، فإنه لم يكن ممكنًا في ذلك الحين أن أقول كلمة واحدة أمام الناس في ذمه، بل كان ينبغي لي أن أتظاهر بأني مصدق لما يصدر عنه من أقوال كاذبة، منتظرًا مساعدة الحوادث على تفهيم الحقائق للناس. وفي الوقت نفسه كنت أحاول إرشاد الذين يخاطبونني من الأهالي وتفهيمهم الحقائق بقدر المستطاع، وأسعى لتأييد أقوالي بأفعالي. وقد جنيت ثمرات هذه المساعي فيما بعد أثناء الحروب التي نشبت بيننا وبين الإدريسي في عسير وبعد وقوع الحصار، إذ أصبح القسم الجبلي من البلاد مطيعًا لأمري ومحبًا للدولة. وأن الأهالي الذين كانوا يقاتلوننا مع الإدريسي عادوا عندما نشبت الحرب الطرابلسية إلى الانضواء تحت راية الخلافة متألبين على أعوان الإدريسي. ومن نتائج ذلك أيضًا أنه لما انقطعت السبل بجنود الدولة عقب إعلان الحرب العظمى حافظ

الأهالي على جنودنا في عسير بكل احترام. وعلى ذلك فقد كان أول ما اهتممت له تصحيح أفكار الناس من جهة الدولة، وتمكينهم من مباشرة أمورهم".

ثم يتطرق إلى ما قام به بعد تقلده عسير فيقول: "إنني عقب وصولي إلى عسير جريت على تنفيذ رغبة الشعب في العمل بأحكام الشرع وتنشيط المحاكم الشرعية وانتخاب أحد علماء البلاد ممن نال ثقة الأهالي لتوليته القضاء في عسير - وكان القضاة يعينون من الآستانة - وبذلك توصلت إلى اكتساب رضا الشعب بتحقيق ميوله وجعل جميع رجال المحاكم الشرعية ممن هم موضع ثقته. ومعنى ذلك أن الحكومة صارت غير مسؤولة - من الوجهة المعنوية - عن الأحكام التي تصدر من تلك المحاكم، إذ كنت أحيل كل قضية صغيرة كانت أو كبيرة على المحاكم الشرعية، وأجيز بالنيابة عن مقام الخلافة العظمى الأحكام التي يصدرها القضاة الشرعيون، ولم يعد لصديق أو عدو حق بالاعتراض علينا من هذه الجهة أو أن يشكو من سير العدل في حكمنا"(٢٨).

وأراد سليمان شفيق توسيع تجربته بتعيين قاض محلي آخر في عسير، وهو الشيخ محمد بن عبدالله بن خضرة قاضي قبيلة بني مالك المشهور بعلمه وفضله وعدله، وعيّن له راتبًا خمسين جنيهًا ذهبًا في الشهر، ولكنه أبى أن يقبل المنصب وكتب إليه معتذرًا لعدم كفاءته لتولي هذا العمل، رغم كونه رجلاً فقيرًا.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الأول المحرم ١٤٣١هـ، السنة السادسة والثلاثون
الدارة

---

(٢٨) مجلة العرب، ج١، سنة ٦، ص١٣-١٤.

ويرى سليمان شفيق أن "اعتذاره ليس ناشئًا عن عجزه العلمي، وإنما سببه الحقيقي أن الرأي العام في عسير كان ينظر إلى الحكومة العثمانية حتى ذلك الوقت بأنها قوة مسلحة مسلطة على الخلق وأن خدمتها مما لا يلائم مصلحة الوطن، فكان يرى محمد بن عبدالله بن خضرة أنه إذا قبل المنصب... سيسقط في نظر الناس ويزول حسن ظنهم به". فكتب إليه سليمان شفيق مشبهًا اعتذاره بغني يملأ مخازنه بالمؤن وينظر إلى بني قومه يموتون جوعًا.. ثم استدرك قائلاً: "إن غرضي الوحيد هو سعادة البلاد وسلامتها واتحاد المسلمين وصلاحهم، وللوصول إلى هذه الأمنية أضحي الدنيا وما فيها وأضحي حياتي أيضًا عند اللزوم". وعندما وصلت إليه رسالة سليمان شفيق حضر حالاً لزيارته وأقسم بالله على استعداده لخدمة الدولة، ولكنه يشعر بالعجز عن القيام بهذه المهمة(٢٩).

أسباب الثورات المحلية وإخفاق الدولة في فهمها:

لا شك في أن التجارب التي خاضها سليمان شفيق باشا في الأماكن التي خدم فيها في البلاد العربية علمته الكثير مما كان خافيًا عليه ومكنته من إبداء آراء سديدة بشأنها، ولهذا نراه يتوقف كثيرًا عند المسائل المشتركة التي تخص الدولة والرعايا على حد سواء، إلا أن الثورات التي تفجرت في البلاد العربية، ولا سيما في عسير واليمن، أوقفته كثيرًا لدراسة أسبابها ونتائجها، وركز كثيرًا على هذه الأسباب

---

(٢٩) مجلة العرب، ج١، سنة ٦، ص١٤-١٧.

والنتائج في كل كتاباته. ويقيّم تجربته في عسير وتعامله مع ثورة الإدريسي ويعتبرها ناجحة، ويرجع هذا النجاح إلى "وسيلة التفاهم مع الشعب أكثر مما يرجع إلى القوة والسطوة"، لأنه - كما يقول - كان حريصًا أن يفهم الأهالي ويقنعهم بأن الدولة إنما تبتغي من وجودها في بلادهم أن تحافظ عليهم وتحميهم، لا أن تتخذهم أعداء تعمل على إضرارهم وتعذيبهم. وكان يرمي من وراء إقناعهم بذلك إلى إيجاد ثقة متبادلة بينه وبينهم.

غير أن سليمان شفيق باشا لا يتناسى - وهو يقيّم أسباب الثورات - العوامل الجغرافية والاجتماعية، فيرى: "أن الثورات التي تنشب في بلاد العرب بين حين وآخر ترجع إلى أسباب مختلفة، فالدواعي التي نشأت عنها الثورة في اليمن غير الدواعي التي نشأت عنها الثورة في سوريا، وثورة العراق ناشئة عن أسباب غير هذه وغير تلك". وفضلاً عن هذا فإنه لا يستبعد مسؤولية الدولة عما كان يجري، لأنها لم "تدرس بإمعان بواعث هذه الأمراض الداخلية، وكانت تنظر إلى مظاهرها نظرًا سطحيًا، فتراها جميعًا ثورة عادية، ومن أجل ذلك كانت الدولة تبذل ضحاياها في هذا السبيل دون أن تصل إلى نتيجة"(٣٠).

اتهام الدولة بالظلم:

ولا ينسى سليمان شفيق باشا أن يرد على المدعين بأن الثورات ناشئة عن ظلم الحكومة العثمانية للأهالي فيقول:

---

(٣٠) مجلة العرب، ج١١، سنة ٦، ص٨٤٨-٨٤٩.

إن الدولة العثمانية منذ أن دخلت بلاد عسير إلى أن خرجت منها لم ترابط فيها قوة راجحة على قوة الأهالي، ولهذا فإنها كانت غير قادرة على أن تظلمهم... وكانت عاجزة على القيام بذلك إلى درجة أنها لم تستطع تقرير الأمن العام والمحافظة عليه، أي أن الشعب كان بدون حكومة، "والأهالي لم يكونوا يرون الحكومة بمقام الولي لهم والوصي عليهم، بل كانوا يرونها أشبه بقوة مسلحة تهمل حقوق الناس وتحاول التسلط عليهم بقوة". وهنا يقدم مثالاً ليثبت ما ذهب إليه، فعندما كان متنقلاً بين قبائل قحطان في عسير استوقفه أحد المشايخ ليسأله فيما إذا كان القمح موجودًا في بلاده أم لا، وعندما أجابه بنعم، فاجأه الشيخ سائلاً: "إذن لماذا تجيئون إلى هذه البلاد؟" فيعلق هو على سؤاله قائلاً: إنه "يعتقد أن الترك يأتون إلى عسير ليأكلوا خبز القمح فقط، وأنهم من أجل ذلك أصبحوا بلاءً مسلطًا على الأهالي". ويبدو أنه يعطي الحق لهذا السائل، ويتهم الحكومة بعدم قيامها بواجباتها فيقول: "وفي الواقع إن الدولة لم تصنع في بلاد عسير شيئًا غير تحصيل الزكاة من الأهالي بين حين وآخر، ولم تفكر قط في إيجاد أسباب العمران لإحياء هذه الجهات، ولم تتذرع بشيء من ورائه نفع الأهالي، وليس لها برنامج معين يسير عليه رجالها وموظفوها الذين يأتون إلى هذه البلاد، وهم لم يستطيعوا أن يفهموا الأمور التي يحتاج الشعب إليها، ولم يدرسوا أسباب ثورة الأهالي وتمردهم على الدولة، ولم يستطيعوا أن يقرروا الأمن، بل تركوا الناس وشأنهم يحارب بعضهم بعضًا والحكومة واقفة تتفرج عليهم،

وكانت وظيفتها مقصورة على حراسة نفسها في الأماكن التي استولت عليها وأقامت فيها، وقد دفنت من أجل ذلك ألوفًا من أبناء القومية التركية في بلاد الغربة"(٣١). ويبدو أن سؤال الشيخ جعله يتقرب من الأهالي أكثر وأكثر ليحسن صورة الدولة عندهم وينال ثقتهم.

كيفية التعامل مع الأحداث:

رأى سليمان شفيق باشا أن القوة المنفذة للإدريسي تكمن بما تقدمه العشائر له، فعمل على كل ما من شأنه كسب ود هذه العشائر واستمالتها. وقبل كل هذا درس سلوك هذه العشائر ورغباتها، وتوصل إلى أن "من عادة القبائل العربية في عسير وفي كل مكان أنها تُسَرُّ بإعزازها وإكرامها، وإذا وثقت بالطمأنينة لها والميل إليها تخلص الخدمة باستقامة وجد"، ولهذا فلكي يشعر شيوخ العشائر بأنهم محل اهتمام واعتزاز أمر بإطلاق المدافع كلما زاره أحد المشايخ، فإذا زاره شيخ مشايخ إحدى القبائل تُطلق ثلاثة مدافع، وإذا زاره شيخ يُطلق مدفع واحد له. ويعلق على هذا العمل قائلاً: كان لذلك وقع عظيم عند مشايخ القبائل حتى صاروا يعدُّونني واحدًا منهم، ويحبونني كحبهم أنفسهم، وهذه المحبة المتبادلة لا يزول أثرها قط من نفسي، حتى إنني إلى هذا اليوم (١٩٢٤م/ ١٣٤٢هـ) لا أنسى عسير والعسيريين، وإني واثق من أنهم هم أيضًا لم ينسوني"(٣٢).

---

(٣١) مجلة العرب، ج١١، سنة ٦، ص٨٤٩-٨٥٠.

(٣٢) مجلة العرب، ج١١، سنة ٦، ص٨٤٨.

ومما تجدر الإشارة إليه أن سليمان شفيق أبدى آراءه هذه كلها إثر دخول القوات العثمانية في قمع ثورة الإدريسي، وطغت على المنطقة صفات التمرد والعصيان، وما رافقها من سفك الدماء. ولكن ماذا عن المناطق التي ظلت هادئة ولم تشهد ثورة كهذه؟ ألم يتعرض لها سليمان شفيق باشا وخاصة أنه شاهد كل الولايات العربية العثمانية؟.

أقول لم يغب عن مخيلته ذلك أبدًا، فخلال توجهه إلى الحرمين عبر بلاد الشام (١٨٩٠م/ ١٣٠٧هـ) لم يغب عن ناظره كل شيء غير اعتيادي، وكتب تقارير متعددة عنه أدرجها في رحلته، فعندما وصل إلى معان (بالأردن) أبدى أسفًا شديدًا لترك منطقة واسعة منها دون زراعتها، وذلك بسبب تسلط البدو عليها، فعلق قائلاً: "من المعلوم أن ازدهار وعمران أي منطقة من المناطق يكون بالتجارة والزراعة، وهما تتوقفان على انتشار الأمن والاستقرار. وفي هذه المنطقة لا يميز الحاكم عن الخادم ويتحكم القوي على الضعيف... وعندما يصل إلى مسامع البدو أن الأهالي العاجزين يمتلكون شيئًا ذا قيمة، فإنهم يغيرون عليهم ويسلبونهم، ولهذا فإن سكان القرى لا يرغبون بالزراعة طالما أنهم لن يجنوا ثمرة جهودهم".

ويتهم الحكومة بما آلت إليه الحال في هذه المنطقة لكونها غائبة عنها، ولهذا فإنها لا تحصل التكاليف الميرية (الضرائب) منها، الأمر الذي أدى إلى تحكم شيوخ العشائر في المنطقة. ويرى سليمان شفيق أن على الدولة أن تأخذ

دورها الفاعل فيها، وذلك بتعيين متصرف فعال وعفيف ومقتدر، ووضع وحدة عسكرية تحت إمرته، وبهذا من الممكن تحقيق الأمن والنظام فيها في مدة زمنية قصيرة، ومن ثم تحقيق الازدهار والرقي والتمدن(٣٣).

ولا ينسى سليمان شفيق اعتداءات البدو على قافلة الحج في طريق الحج الشامي بدءًا من دمشق وانتهاءً بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وما يلحقون من خسائر في الأرواح والأموال، فذكر أن بوسع أي دولة من الدول السيطرة على منطقة من المناطق بالقوة القاهرة، ولكن ينبغي عليها أن تشيع العدل، ولا يمكن تأمين إدارتها إلا بالعدل حتى لو سيطرت عليها بلايين الجنود. ويرى أن عصيان العشائر وإلحاقهم الخسائر بالقوافل لا يمكن ردعه بإغراء مسؤولي هذه العشائر بالأموال، لأن هذا العمل سيشجعهم على التمادي في مطالبهم أكثر وأكثر، فتعتقد أن الدولة تخشى منها ومن قوتها فترفع من سقف مطالبها، بل على الدولة أن تظهر قوتها وتستخدمها لردعهم، وبعد "إخراج ما يمكن إخراجه من الدماء الفاسدة التي تجري في عروقهم"، تباشر بالتعامل مع الواقع في "دائرة الحق والعدالة"، ثم تأخذ الدولة بنظر الاعتبار إسكان وإيواء هذه العشائر، وتبذل قصارى جهدها من أجل تخليص أفراد هذه العشائر من الجهل الذي خيم عليهم(٣٤).

---

(٣٣) حجاز سياحتنامه سي، ص٩٨-٩٩.

(٣٤) حجاز سياحتنامه سي، ص١٩٩-٢٠٠.

الشعور بالقومية:

استبعد سليمان شفيق عامِلَ "الشعور بالقومية" من بين العوامل التي أدت إلى قيام الثورات ضد الدولة العثمانية، وذلك لأن هذا الشعور - كما يقول - لم يكن قد وصل إلى جزيرة العرب، ولا سيما إلى مقاطعة عسير في ذلك الحين، فكانت العاطفة الغالبة على العقول والقلوب هي العاطفة الدينية والجامعة المذهبية. وبعد أن يسترسل في حيثيات انتشار الشعور القومي في بلاد الأمم الأوربية يقول: "لا يسوؤني أن أجد في أي أمة من الأمم شبابًا تعلقوا بحب قوميتهم ووطنهم، بل أحتقر الذين لا يشعرون هذا الشعور، ولا سيما الذين ينصرفون عن مصالح قوميتهم لقاء منافع شخصية خسيسة..." ويؤكد في تقييمه العام لثورة عسير بأنها "لم تكن نتيجة شعور قومي حيل بين الشعب وبين تحقيقه فانفجر بشكل ثورة، وإنما هي نتيجة وجود البلاد بلا حكومة ولا صاحب، فانسلبت ثقة القبائل بعضها ببعض" وشاعت الفوضى.. واستغل كل ذلك الإدريسي ليظهر بدعوى جذابة متبرئًا فيها من كل مسعى لأجل نفسه.. ولكن ما أن تمكن من تأسيس إمارة له حتى أعلن نفسه حاكمًا متسلطًا(٣٥).

انتقاده البيروقراطية المستشرية في الأجهزة الحكومية:

كان سليمان شفيق يستاء كثيرًا من البيروقراطية المستشرية في أجهزة الدولة حيث تتباطأ إجراءات الحكومة حتى في المسائل المستعجلة، ولا تؤخذ المسائل الجدية

---

(٣٥) مجلة العرب، ج١٢، سنة ٦، ص٩٥٠-٩٥٢.

والحساسة أحيانًا بعين الاعتبار من قبل رجال الدولة في المركز، ويتم تأخير الإجابات عن الرسائل الصادرة من الولايات ولا يبدى بشأنها آراء سديدة، وتتخذ إجراءات غير ذات جدوى حول بعض المسائل الحساسة، ولهذا لم يتردد في إلقاء اللوم على الحكومة وانتقادها، بل واتهامها بالتقصير تجاه ما كان يحدث في الولايات، ولا سيما البعيدة منها.

وعندما عاد إلى إستانبول بعد حركة الإدريسي في عسير قابل طلعت باشا واقترح عليه تشكيل غرفة عمليات خاصة بكل منطقة تشهد اضطرابًا كسوريا والعراق واليمن والحجاز، ويعين على رأسها من خدم فعلاً في تلك المناطق ممن تلقوا تحصيلاً دراسيًا عاليًا، ويعرفون أمور المنطقة جيدًا، على أن يقوموا بإخراج التقارير المرسلة من تلك المناطق والمحفوظة في خزينة الأوراق وأخذها بنظر الاعتبار، واستشارة كل من له اتصال ومعرفة بتلك المناطق في مسائل معينة، وبهذا يتمكن ناظر الغرفة من التعامل مع كل ما يرد من تلك المناطق ويجري اللازم بشأنها. وعلى الرغم من أن طلعت باشا استحسن رأيه إلا أنه لم يتخذ أي إجراء بشأنه(٣٦).

---

(36) Suleyman Sefik, Basima Gelenler ve Gorduklerim, yayina hazirlayan, Serife Ozkan, p. 17.

هذا القسم من المذكرات غير المنشورة أعدته الباحثة التركية شريفة أوزكان للطبع، وهو قيد النشر في إستانبول، وقد زودتني الباحثة بنسخة منه.

انتقاده الدولة لانخداعها ببعض الأمراء:

ومن الاتهامات التي وجهها سليمان شفيق إلى الحكومة العثمانية إعطاؤها القيمة والاعتبار لبعض الأمراء في المنطقة وانخداعها بهم، ومنهم أمير مكة. ويستدل مما ذكره سليمان شفيق في مذكراته أنه كان يشكو من استهانة الحكومة بآرائه عندما يتعلق الأمر بأمير مكة الذي كان يتدخل في شؤون عسير ضد رغبته، إذ كان يعارض وبشدة تدخل الشريف في أي مسألة تتعلق بهذه المنطقة. وكان محقًا في موقفه هذا؛ لأن الشريف كان يسعى دائمًا إلى تشويه صورته عند الحكومة والاستهانة به عند العشائر والتدخل في شؤونه الخاصة، وأخيرًا استغلال أي وضع استثنائي يستجد في المنطقة لصالحه. فبعد تفجر ثورة الإدريسي كلّفت الحكومة الشريف حسين بالتوجه إلى عسير ضد رغبة سليمان شفيق. وعند وصوله سعى الشريف إلى استمالة العشائر لصالحه، وفي هذه الأثناء ناشده مشايخ العشائر التوسط لدى سليمان شفيق لإطلاق سراح اثنين من أبناء العشائر كانا معتقلين بسبب تحريضهما على العصيان، وعندما فاتحه الشريف بذلك توجه إلى شيوخ العشائر وذكرهم بأنه أقام المحكمة الشرعية بناء على طلبهم، وهو لا يتدخل في شؤونها مطلقًا، وإذا ما أفرج عن الشخصين فإن ذلك سيشكل سابقة خطيرة على مسيرة المحكمة في المستقبل؛ لأن المسؤولين الذين يأتون بعده سيتدخلون في شؤونها متى ما شاؤوا، وهذا لن يكون في صالحهم. ونجح

في إقناع الشيوخ للعدول عن مطلبهم حتى قالوا: "نحن راضون بالحكم الشرعي مهما يكون"(٣٧).

ويبدو مما ذكره سليمان شفيق أنه والشريف حسين كان كل منهما يغار من الآخر، ويسعى إلى الإيقاع بالآخر أو الاستخفاف به في أقل تقدير، ففي الوقت الذي كانت قوات سليمان شفيق منشغلة بقمع ثورة الإدريسي، كتب برقية إلى القيادة العثمانية في الحجاز (سنة ١٩١٢م/ ١٣٣٠هـ) ذكر فيها أنه تلقى ورقة من أمير مكة يقول فيها له "بتطاول وغرور": "إذا لم تستول على (محايل) مرة أخرى فإن المسؤولية تقع عليك وسوف لا أمد لك يد المعونة في أبها". ويعلق سليمان شفيق على هذا الكلام قائلاً: "ومن هو هذا الأمير؟ إن احترامنا الشخصي له قد حمله على أن يجعل لنفسه صفة الرياسة والإمارة علينا، فيا لها من جرأة! إن وزارة الحربية نفسها لا تستطيع أن تتدخل في شؤون جيش حربي مستقل وفي أعمال قيادته. إن الحكم الدستوري الحاضر قد قرر لكل رجل صفته وسلطته. ولو كان الوقت الراهن مساعداً للمناقشات الشخصية لكنت أرسلت لدولة الشريف الجواب اللازم، ولكن الوقت غير مساعد، فآثرت كسر عزة نفسي، واخترت السكوت لأجل دولتي ووطني"، ثم لا ينسى أن يحذر القيادة من نوايا الأمير ويتهمه بأنه يسعى إلى الإفادة من الفوضى الراهنة ليعمل لحسابه ويؤسس لنفسه نفوذاً في عسير(٣٨).

---

(٣٧) مجلة العرب، ج٦، سنة ٦، ص٤١١-٤١٣.

(٣٨) مجلة العرب، ج٣، سنة ٧، ص٢١٠.

جمال باشا ونشاطاته المشبوهة في سوريا:

يتطرق سليمان شفيق باشا في مذكراته غير المنشورة إلى جمال باشا وإلى بعض نشاطاته في سوريا خلال الحرب العالمية الأولى، وما يذكره في هذا المجال هو في غاية الأهمية والخطورة، وسيكون صداه واسعًا في حالة نشره، فيقول عنه: إنه كان يتصرف وكأنه يريد أن يجعل من سوريا ولاية مستقلة له، بل يتهمه ضمنيًا بالقيام بالاستقلال، ويستشهد بما صرح به وزير الخارجية الروسي خلال الحرب العظمى وهو S. Sazanov لإحدى الصحف الأوربية بعد انتهاء الحرب: إن جمال باشا أجرى اتصالاً مع الروس بوساطة البطريركية الأرثوذكسية في دمشق وطلب مساعدتهم في تنصيبه ملكًا على سوريا، ووعدهم في حالة تحقيق ذلك بأنه سيقوم بالعمل على القضاء على حكومة الاتحاد والترقي في إستانبول، وسيدير ظهره عن الألمان حلفاء العثمانيين في الحرب. ويبدو أن الروس قاموا بالاتصال مع الفرنسيين في هذا الأمر، ولكن فرنسا رفضت طلب جمال باشا؛ لأنها كانت ترى نفسها صاحبة الحق على سورية.

ويرى سليمان شفيق أن ما أقدم عليه جمال باشا من إعدامات في سوريا كان الغرض منه هو إزاحة القوميين العرب عن طريقه، وعدم إبقاء أي عائق يحول دون تنفيذ خطته، أي تنصيبه ملكًا على سوريا(٣٩).

---

(39) Basima Gelenler, p. 134.

تطوير الملاحة العثمانية في البحر الأحمر:

من الأفكار التي طرحها سليمان شفيق تطوير الملاحة البحرية في البحر الأحمر، ولا سيما في السواحل الشرقية منه، فيتطرق إلى أهمية ميناء جدة، ويرى أنه يضاهي ميناء حجلة العثماني، وإذا ما أخذ موقعه الجغرافي بنظر الاعتبار، وتم تنظيمه، فسيكون أهم ميناء في هذه المنطقة بعد ميناء السويس، ولهذا يقترح بناء رصيف وإقامة فنارات في ساحله. وهذا الميناء يتميز بسعته وعمقه، فهو ليس بحاجة إلى عمليات التطهير، ومن الممكن تحقيق ذلك بمبلغ مالي ضئيل. واليوم (أي في أواخر القرن التاسع عشر/ بداية القرن الهجري الرابع عشر) يتردد إلى الميناء بضع مئات من السفن، ولكن في حالة تنظيمه سيبلغ العدد الآلاف، كما أن سفن البريد العاملة في البحر الأحمر وتأتي إلى جدة تابعة إلى الشركة الخديوية، ولا تمر هذه السفن من جدة إلا كل أسبوعين؛ الأمر الذي لا يحقق الانتظام من الناحية التجارية.

ويذكر سليمان شفيق أنه عند الاطلاع على تاريخ الموانئ الموجودة في السواحل الشرقية من البحر الأحمر نجد أن هذه الموانئ كانت مزدهرة بشكل استثنائي يوم كانت اليمن تتمتع بأهمية تجارية، وتتميز العقبة أو أَيْلَة الواقعة في نهاية البحر الأحمر بثروتها الاستثنائية، والمشاهَد أن هذه السواحل تفقد أهميتها يومًا بعد يوم على العكس من السواحل الغربية التي تظهر فيها آثار الرقي والعمران. وإذا ما تمّ البحث في هذا الوضع نجد أن إعمار منطقة من المناطق وانتظامها يتوقف

على تسيير التجارة، ولا يتحقق هذا إلا بإقامة موانئ منتظمة ونصب الفنارات فيها وتشغيل سفن البريد بشكل منتظم.

ويرى سليمان شفيق أن عدم انتظام السواحل العثمانية أدى إلى عدم ارتياد السفن العاملة بين الهند وأوربا وهي بالآلاف، وزاد من جهة أخرى ثروات السواحل الغربية.. ثم يتأسف لعدم إقامة موانئ منتظمة على هذه السواحل المنضوية تحت الحكم العثماني منذ مئات السنين، الأمر الذي أدى إلى عدم ارتياد السفن، وإذا ما أولي هذا الجانب الاهتمام وتم تنظيمه وإصلاحه فإنه يكتسب أهميته من الناحية التجارية في غضون مدة قصيرة، ويدر على خزينة الدولة أموالاً طائلة. ويقترح قبل كل شيء لأجل ذلك:

١ - تنظيم موانئ جدة والحديدة وينبع، وذلك بإقامة مرافئ وأرصفة فيها.

٢ - إقامة دوائر الجمارك ومخازن الفحم فيها.

٣ - نصب عدة فنارات على شواطئها.

٤ - تشغيل أربع سفن عثمانية أو خمس بين ميناء السويس وعدن.

وأخيرًا لا ينسى أن يربط كل ذلك بتطوير البلاد الحجازية واليمنية، ويرى أن على الدولة - لأجل مواصلة إدارتها لهذه المناطق - أن تأخذ جميع السواحلِ الممتدة من العقبة حتى باب المندب تحت الانضباط، وأن تُسكِن العشائر البدوية الموجودة داخل الجزيرة العربية وبشكل تدريجي، وتعمل على تفاعلها مع الدولة. ويرى أن هذا الأمر ضرورة ينبغي الأخذ

بها، وإلا فإنه سيولد مخاطر للدولة لا تحمد عقباها، ويقال إنه يتم تشغيل بريد من إستانبول إلى الحديدة ويستغرق السفر بينهما (٤٥) يومًا، بل ويتأخر أكثر من ذلك. وأن عدم انتظام سفن الإدارة الخاصة أدى إلى ضجر الأهالي والزوار، كما أنه يؤثر في سوق ونقل الجيش السلطاني السابع. وفضلاً عن هذا يتم - في حالة الضرورة - استئجار السفن من الأجانب لاستخدامها في هذا المجال، الأمر الذي يضر بالدولة دون جدوى، كما أن عدم انتظام تسيير السفن يؤدي إلى الاعتقاد عند الأهالي - وخاصة عند البدو - بأن الدولة ضعيفة وعاجزة عن ذلك، وأن المصريين أقوى من الدولة العثمانية. وهو أمر غير مستحسن(٤٠).

وفي نهاية آرائه ومقترحاته يقول إن ما عرضه هنا "عارٍ من أي غرض، ويشكل عين الحقيقة"، ولهذا يطلب اتخاذ ما يلزم بشأنه(٤١).

رؤيته بشأن مستقبل الولايات العربية العثمانية:

تقلد سليمان شفيق باشا مناصب ومهام مهمة في الولايات العربية العثمانية، ولا سيما في اليمن وعسير وسوريا والعراق، وشهد أحداثًا ساخنة، وكان ذلك كافيًا لكي يبدي رأيه أو آراءه بشأن هذه الولايات.

ويرى أن العواقب الوخيمة التي وصلت إليها الدولة العثمانية كان سببها التمسك الشديد بطريقة الحكم المركزي

---

(٤٠) حجاز سياحتنامه سي، ص٢٤٨-٢٥٢.

(٤١) حجاز سياحتنامه سي، ص٢٥٦.

والإعراض عن طريقة الحكم غير المركزي، ولهذا طالب بإدارة هذه المناطق إدارة غير مركزية، ويبرر مطلبه هذا ببعد هذه المناطق عن مركز الدولة، وعدم تمكن الدولة من الوقوف على حقيقة الأمر في الوقت المناسب، وإضاعة الوقت بالمراسلات بين المركز والولايات. ولا يتردد سليمان شفيق من توجيه اللوم إلى الدولة لتوهمها بأن الاعتراف بالزعامات المحلية - كإمامة اليمن مثلاً - يمس بسلطة الحكومة وهيبتها.

ويبدو أن الدولة العثمانية أخذت نشر هذا النوع من الإدارة على محمل الجد، وبعد تقييم سليمان شفيق باشا للاتفاقية المعقودة بين الدولة العثمانية وابن سعود [الملك عبدالعزيز]، والتي مثّل فيها الدولة شخصيًا، ذكر أن الدولة عقدت اتفاقية قبل هذا التاريخ بثمانية عشر شهرًا مع الإمام يحيى في اليمن، وهي علامة خير باهرة تدل على ما للدولة من خطوة منوية بشأن بلاد العرب في المستقبل، ويرى أن الدولة العثمانية لو لم تدخل في الحرب العالمية الأولى واحتفظت بحيادها، فقد كان في نية حكومتها وضع نظام خاص لطريقة الحكم في العراق وسوريا(٤٢).

---

(٤٢) مجلة العرب، ج٥، سنة ٧، ص٣٨٨، ج٩، سنة ٥، ص٨٥٧-٨٥٨.

المعسكر الكشفي الأول (الجامبوري)
المنعقد في جدة
في شعبان ١٣٧٨هـ/١٩٥٧م، تقرير

اختيار وإعداد
د. فهد بن عبدالله السماري

٧٩ صفحة

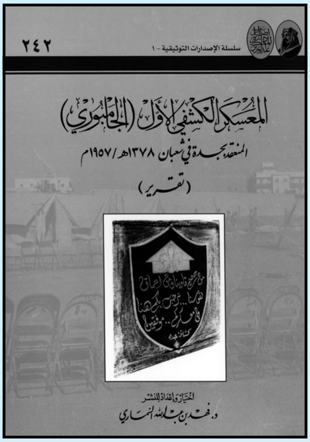
سلسلة الإصدارات التوثيقية - ١
٢٤٢
المعسكر الكشفي الأول (الجامبوري)
المنعقد بجدة في شعبان ١٣٧٨هـ/١٩٥٧م
(تقرير)
اختيار وإعداد للنشر
د. فهد بن عبدالله السماري

يحتوي هذا الكتاب على تقرير المعسكر الكشفي الأول في المملكة العربية السعودية، المنعقد بجدة في شعبان ١٣٧٨هـ/١٩٥٧م.

ويضم بيانات هذا المعسكر من حيث الموقع والإعداد له وعدد الكشافة، والبرامج والأنشطة المتنوعة فيه، إضافة إلى كلمات الافتتاح ومقتطفات من أقوال الصحف التي تحدثت عن المعسكر.

ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد إلكتروني info@darah.org.sa